{إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}(1)

{إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} في الآية لطائف:

إحداها: أنه تعالى لما وعد محمدًا بالتربية العظيمة بقوله:

{وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}

[الضحى:5] و قوله:

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ}

[الكوثر:1] لا جرم كان يزداد كل يوم أمره، كأنه تعالى قال: يا محمد لم يضيق قلبك، ألست حين لم تكن مبعوثًا لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل، و في أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصرًا لك بذاتي: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} فقال: إلهي إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي و مسكني فقال: {وَ ٱلْفَتْحُ} فقال: إلهي لكن القوم إذا خرجوا، فأي لذة في ذلك فقال: {وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا} ثم كأنه قال: هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة:

{يأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}

[الكافرون: 1] يشتمل على أمور ثلاثة أولها: نصرتني بلسانك فكان جزاؤه: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} و ثانيها: فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد فأعطيناك فتح مكة و هو المراد من قوله، {و الفتح} و الثالث: أدخلت رعية جوارحك و أعضائك في طاعتي و

عبوديتي فأنا أيضًا أدخلت عبادي في طاعتك، و هو المراد من قوله: {يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا} ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث إلى حضرتي بثلاث أنواع من العبودية تهادوا تحابوا، إن نصرتك فسبح، و إن فتحت مكة فاحمد و إن أسلموا فاستغفر، و إنما وضع في مقابلة: نصر الله تسبيحه، لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات، يعني تشاهد أنه نصرك، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر، بل اعتقد كونه منزهاً عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً، ثم جعل في مقابل فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد، ثم جعل في مقابلة دخول الناس في الدين الاستغفار و هو المراد من قوله:

{وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ}

[محمد: 19] أي كثرة الأتباع مما يشغل القلب بلذة الجاه و القبول، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك، و استغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر الوجه الثاني: أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر و واجههم بالسوء في قوله: {يا أيها ٱلْكَافِرُونَ} كأنه خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة فقال: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ} فقيل: يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ} نظيره: «زويت لي الأرض» يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك، فإن سئمت المقام و أردت الرحلة، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين:

{سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ}

[الإسراء: 16] بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقي الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه:

{وَ أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}

[الشعراء: 90] الوجه الثالث: كأنه سبحانه قال: يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها و لا تدوم محنها و لا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا: أعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم و ضاق قلبه من جهتهم قال: أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال: الرحيل الرحيل أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال، فاستغفره أيها الإنسان لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف و لا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير و منه:

إذا تم أمر دنا نقصه

توقع زوالا إذا قيل تم

إلهي لم فعلت كذلك قال: حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبدًا على جناح الارتحال و السفر الوجه الرابع: لما قال في آخر السورة المتقدمة: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ} فكأنه قال: إلهي و ما جزائي فقال: نصر الله فيقول: و ما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام فقال:

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}

[المسد: 1] فإن قيل: فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد، قلنا: لوجوه أحدها: لأن رحمته سبقت غضبه و الثاني: ليكن الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال: {وَ لِيَ دِينِ} و هو النصر كقوله:

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ}

[آل عمران: 106]، و ثالثها: الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة و تلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور

من الله و بأمره الوجه الخامس: أن في السورة المتقدمة لم يذكر شيئاً من أسماء الله، بل قال: ما أعبد بلفظ ما، كأنه قال: لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم، و في هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها متولة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكأنه سبحانه قال لا تذكر اسمي مع الكافرين حتى لا يهينوه و اذكره مع الأولياء حتى يكرموه الوجه السادس: قال النحويون: {إذاً} منصوب بسبح، و التقدير: فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله، كأنه سبحانه يقول: جعلت الوقت ظرفاً لما تريده و هو النصر و الفتح و الظفر و ملأت ذلك الظرف من هذه الأشياء، و بعثته إليك فلا ترده علي فارغًا، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى: «تهادوا تحابوا» فكأن محمداً عليه السلام قال: بأي شيء أملأ ظرف هديتك و أنا فقير، فيقول الله في المعنى: إن لم تجد شيئًا آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح و الحمد و الاستغفار، فلما فعل محمد عليه الصلاة و السلام ذلك حصل معنى تهادوا، لا جرم حصلت المحبة، فلهذا كان محمد حبيب الله الوجه السابع: كأنه تعالى يقول: إذا جاءك النصر و الفتح و دخول الناس في دينك، فاشتغل أنت أيضًا بالتسبيح و الحمد و الاستغفار، فإني قلت:

{لئن شكرتم لأزدينكم}

[إبراهيم: 7] فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا و الآخرة، و لا تزال تكون في الترقي حتى يصير الوعد بقولي: {إنا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ} الوجه الثامن: أن الإيمان إنما يتم بأمرين: بالنفي و الإثبات و بالبراءة و الولاية، فالنفي و البراءة قوله: {لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} و الإثبات والولاية قوله: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة.

و اعلم أن في الآية أسرارًا، و إنما يمكن بيانها في معرض السؤال و الجواب.

السؤال الأول: ما الفرق بين النصر و الفتح حتى عطف الفتح على النصر؟ الجواب: من وجوه أحدها: النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، و الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقًا، و ظاهر أن النصر كالسبب الفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر و عطف الفتح عليه و ثانيها: يحتمل أن يقال: النصر كمال الدين، و الفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة، و نظير هذه الآية قوله:

{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}

[المائدة: 3] و ثالثها: النصر هو الظفر في الدنيا على المنى، و الفتح بالجنة، كماقال:

{وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}

[الزمر: 73] وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب.

السؤال الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان أبدًا منصورًا بالدلائل و المعجزات، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة؟ و الجواب: من وجهين أحدهما: المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع، إنما جعل فظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر المخصوص، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم، كماأن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط، و إلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى:

{وَ زُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوْا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ}

[البقرة: 214] و ثانيهما: لعل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذي حكم به لأنبيائه كقوله:

{إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ}

[نوح: 4]

السؤال الثالث: النصر لا يكون إلا من الله، قال تعالى:

{وَ مَا ٱلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ ٱللهِ}

[آل عمران: 126] فما الفائدة في هذا التقييد و هو قوله: {نَصْرُ ٱللهِ}؟ و الجواب معناه نصر لا يليق إلا بالله و لا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته و يقال: هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة، و المراد منه تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا ههنا، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم: {مَتَىٰ نَصْرُ ٱللهِ} فيقول هذا الذي سألتموه.

السؤال الرابع: وصف النصر بالمجيء مجاز و حقيقته إذا وقع نصر الله فما الفائدة في ترك الحقيقة و ذكر المجاز؟ الجواب فيه إشارات: إحداها: أن الأمور مربوطة بأوقاتها و أنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة و أوقاتًا مقدرة يستحيل فيها التقدم و التأخر و التغير و التبدل فإذا حضر ذلك الوقت و جاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر و إليه الإشارة بقوله:

{وَ إِن مّن شَيْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}

[الحجر: 21]، و ثانيها: أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه و سلم، و ذلك لأن ذلك النصر كان مستحقًا له بحكم الوعد فالمقتضى كان موجودًا إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق فإن ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه و سلم و ثالثها: أن عالم العدم عالم لا نهاية له و

هو عالم الظلمات إلا أن في قعرها ينبوع الجود و الرحمة و هو ينبوع جود الله و إيجاده، ثم انشعبت بحار الجود و الأنوار و أخذت في السيلان، و سيلانها يقتضي في كل حين وصولها إلى موضع و مكان معين فبحار رحمة الله و نصرته كانت آخذة في السيلان من الأزل فكأنه قيل: يا محمد قرب وصولها إليك و مجيئها إليك فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح و التحميد و الاستغفار فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها، و لهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله:

{بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا}

[هود: 41] السؤال الخامس: لا شك أن الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه و سلم على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين و الأنصار، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله: {نَصْرُ ٱللَّهِ} فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافًا إلى الله؟ الجواب: هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء و القدر، و ذلك لأن فعلهم فعل الله، و تقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما في قلوبهم من الدواعي و الصوارف، و تلك الدواعي و الصوارف أمور حادثة فلا بد لها من محدث و ليس هو العبد، و إلا لزم التسلسل، فلا بد و أن يكون الله تعالى، فيكون المبدأ الأول و المؤثر الأبعد هو الله تعالى، و يكون المبدأ الأقرب هو العبد. فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى، فإن قيل: فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد مفرعًا على فعل الله تعالى، و هذا يخالف النص، لأنه قال:

{إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ}

[محمد: 7] فجعل نصرنا له مقدمًا على نصره لنا و الجواب: أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل، فيصير ذلك سببًا لصدور فعل عنا، ثم الفعل عنا ينساق إلى

فعل آخر يصدر عن الرب، فإن أسباب الحوادث و مسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية.

السؤال السادس: كلمة: {إِذَا} للمستقبل، فههنا لما ذكر وعدًا مستقبلاً بالنصر، قال: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ} فذكر ذاته باسم الله، و لما ذكر النصر الماضي حين قال: {وَ لَئِنْ جَاء نَصْرٌ مّن رَّبّكَ لَيَقُولُنَّ} [العنكبوت: 10] فذكره بلفظ الرب، فما السبب في ذلك؟ الجواب: لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار ربًّا، و قبله ما كان ربًّا لكن كان إلهًا.

السؤال السابع: أنه تعالى قال: {إِن تَنصُرُوْا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [محمد: 7] و إن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال: {قُلْ يأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} فكان واجبًا بحكم هذا الوعد أن ينصره الله، فلا جرم قال: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ} فهل تقول بأن هذا النصر كان واجبًا عليه؟ الجواب: أن ما ليس بواجب قد يصير واجبًا بالوعد، و لهذا قيل: وعد الكريم ألزم من دين الغريم، كيف و يجب على الوالد نصرة ولده، و على المولى نصرة عبده، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحدًا اتفاقًا، و إن كان مشغولاً بصلاة نفسه، ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى فوعده مع الكرم و هو أرأف بعبده من الوالد بولده و المولى بعبده و هو ولي بحسب الملك و مولى بحسب السلطنة، و قيوم للتدبير و واحد فرد لا ثاني له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده، فلهذا قال: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ}.

أما قوله تعالى: {وَ ٱلْفَتْحُ} ففيه مسائل:

المسألة الأولى: نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة و هو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح.روي أنه لما كان صلح الحديبية و انصرف رسول الله صلى الله عليه و سلم أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة و كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم فجاء سفير ذلك القوم و أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم فعظم ذلك عليه، ثم قال: "أما إن هذا العارض ليخبرني أن الظفر يجيء من الله، ثم قال لأصحابه: أنظروا فإن أبا سفيان يجيء و يلتمس أن يجدد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمسًا لذلك فلم يجبه الرسول و لا أكابر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك و رجع إلى مكة آيساً و تجهز رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى المسير لمكة، ثم يروى أن سارة مولاة بعض بني هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها: جئت مسلمة؟ قالت: لا لكن كنتم الموالي و بي حاجة، فحث عليها رسول الله بني عبد المطلب فكسوها و حملوها و زودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير و استحملها كتاباً إلى مكة نسخته: اعلموا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذوكم، فخرجت سارة و نزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله صلى الله عليه و سلم علياً عليه السلام و عمارًا في جماعة و أمرهم أن يأخذوا الكتاب و إلا فاضربوا عنقها، فلما أدركوها جحدت و حلفت فسل علي عليه السلام سيفه، و قال: الله ما كذبنا فأخرجته من عقيصة شعرها، و استحضر النبي حاطباً و قال: ما حملك عليه؟ فقال: و الله ما كفرت منذ أسلمت و لا أحببتهم منذ فارقتهم، لكن كنت غريباً في قريش و كل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يدًا، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال: و ما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر، ثم خرج رسول الله

إلى أن نزل بمر الظهران، و قدم العباس و أبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي و إلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعاً و عطشاً فرق قلبه، فأذن له و قال له: ألم يأن أن تسلم و توحد؟ فقال: أظن أنه واحد، و لو كان ههنا غير الله لنصرنا، فقال: ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟ فقال: إن لي شكاً في ذلك، فقال العباس: أسلم قبل أن يقتلك عمر، فقال: و ماذا أصنع بالعزى، فقال عمر: لو لا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك، فقال: يا محمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش و تصالح قومك و عشيرتك، فسكان مكة عشيرتك و أقارب، و (لا) تعرضهم للشن و الغارة، فقال عليه السلام: هؤلاء نصروني و أعانوني و ذبوا عن حريمي، و أهل مكة أخرجوني و ظلموني، فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم، و أمر العباس بأن يذهب به و يوقفه على المرصاد ليطالع العسكر، فكانت الكتيبة تمر عليه، فيقول من هذا؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يرى منها إلا الحدق، فسأل عنهم، فقال العباس: هذا رسول الله، فقال: لقد أوتي ابن أخيك ملكًا عظيمًا، فقال العباس: هو النبوة، فقال هيهات النبوة، ثم تقدم و دخل مكة، و قال: إن محمدًا جاء بعسكر لا يطيقه أحد، فصاحت هند و قالت: اقتلوا هذا المبشر، و أخذت بلحيته فصاح الرجل و دفعها عن نفسه، و لما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر، و كانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعًا شديداً و سأل العباس، فأخبره بأمر الصلاة، و دخل رسول الله مكة على راحلته و لحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعًا و شكرًا، ثم التمس أبو سفيان الأمان، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقال: و من تسع داري، فقال: و من دخل المسجد فهو آمن فقال: و من يسع المسجد؟ فقال: من ألقى سلاحه فهو آمن، و من

أغلق بابه فهو آمن، ثم وقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على باب المسجد، و قال: لا إله إلا الله وحده صدق وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا أهل مكة ما ترون إني فاعل بكم، فقالوا: خير أخ كريم و ابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء و من ذلك كان علي عليه السلام يقول لمعاوية: أنى يستوي المولى و المعتق يعني أعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم و لم يقل:اذهبوا فأنتم معتقون، بل قال: الطلقاء، لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق، و المطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح و كانوا بعد على الكفر، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى و لأن الطلاق يخص النسوان، و قد ألقوا السلاح و أخذوا المساكن كالنسوان، و لأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء، و المطلقة تجلس في البيت للعدة، و هم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان، ثم إن القوم بايعوا رسول الله صلى الله عليه و سلم على الإسلام، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجًا، روي أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات: أربعة صلاة الضحى، و أربعة أخرى شكراً لله نافلة، فهذه هي قصة فتح مكة"

، و المشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة، و مما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر. و قد كان يجد النصر دون الفتح كبدر، و الفتح دون النصر كإجلاء بني النضير، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح، و صار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم القول الثاني: أن المراد فتح خيبر، و كان ذلك على يد علي عليه السلام، و القصة مشهورة، روي أنه أستصحب خالد بن الوليد، و كان يساميه في الشجاعة، فلما نصب السلم قال لخالد: أتتقدم؟ قال: لا، فلما تقدم علي عليه

السلام سأله كم صعدت؟ فقال: لا أدري لشدة الخوف، و روي أنه قال: لعلي عليه السلام ألا تصارعني، فقال: ألست صرعتك؟ فقال: نعم لكن ذاك قبل إسلامي، و لعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يمتنع عنه علي، أو كان علي يقول صرعتك حين كنت كافرًا، أما الآن و أنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك القول الثالث: أنه فتح الطائف و قصته طويلة و القول الرابع: المراد النصر على الكفار، و فتح بلاد الشرك على الإطلاق، و هو قول أبي مسلم و القول الخامس: أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم، و منه قوله:

{وَ قُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}

[طه: 114] لكن حصول العلم لا بد و أن يكون مسبوقًا بانشراح الصدر و صفاء القلب، و ذلك هو المراد من قوله: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ} و يمكن أن يكون المراد بنصر الله إعانته على الطاعة و الخيرات، و الفتح هو انتفاع عالم المعقولات و الروحانيات.

المسألة الثانية: إذا حملنا الفتح على فتح مكة، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان:أحدهما: أن فتح مكة كان سنة ثمان، و نزلت هذه السورة سنة عشر، و روي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يومًا، و لذلك سميت سورة التوديع و القول الثاني: أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة، و هو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة، و أن يفتحها عليه، و نظيره قوله تعالى:

{إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}

[القصص: 85] و قوله: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ} يقتضي الاستقبال، إذ لا يقال فيما وقع: إذا جاء و إذا وقع، و إذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له، و الإخبار عن الغيب

معجز فإن قيل: لم ذكر النصر مضافًا إلى الله تعالى، و ذكر الفتح بالألف و اللام؟ الجواب: الألف و اللام للمعهود السابق، فينصرف إلى فتح مكة.

{وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجًا}(2)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: (رأيت) يحتمل أن يكون معناه أبصرت، و أن يكون معناه علمت، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون في محل النصب على الحال، و التقدير: و رأيت الناس حال دخولهم في دين الله أفواجًا، و إن كان معناه علمت كان {يدخلون في دين الله} مفعولاً ثانيًا لعلمت، و التقدير: علمت الناس داخلين في دين الله.

المسألة الثانية: ظاهر لفظ الناس للعموم، فيقتضي أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك الجواب: من وجهين الأول: أن المقصود من الإنسانية و العقل، إنما هو الدين و الطاعة، على ما قال:

{وَ مَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ}

[الذاريات: 56] فمن أعرض عن الدين الحق و بقي على الكفر، فكأنه ليس بإنسان، و هذا المعنى هو المراد من قوله:

{أُوْلائِكَ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ}

[الأعراف: 179] وقال:

{آمنوا كما آمن الناس}

[البقرة: 13] و سئل الحسن بن علي عليه السلام من الناس؟ فقال: نحن الناس، و أشياعنا أشباه الناس، و أعداؤنا النسناس، فقبله علي عليه السلام بين عينيه، و قال:

الله أعلم حيث يجعل رسالته، فإن قيل: إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة و تقصير كثير، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم؟ قلنا: هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر و المعصية طول عمره، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه، و يمدحه هذا المدح العظيم، و يروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان: أتيت و إن كنت قد أبيت. و يروى أنه عليه السلام قال: **"لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد، و الظمآن الوارد"** و المعنى كان الرب تعالى يقول: ربيته سبعين سنة، فإن مات على كفره فلا بد و أن أبعثه إلى النار، فحينئذ يضيع إحساني إليه في سبعين سنة، فكلما كانت مدة الكفر و العصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولاً الوجه الثاني: في الجواب، روى أن المراد بالناس أهل اليمن، قال أبو هريرة: لما نزلت هذه السورة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **"الله أكبر جاء نصر الله و الفتح، و جاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان و الفقه يمان و الحكمة يمانية، و قال: أجد نفس ربكم من قبل اليمن"**. المسألة الثالثة: قال جمهور الفقهاء و كثير من المتكلمون: إن إيمان المقلد صحيح، و احتجوا بهذه الآية، قالوا: إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج و جعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام، و لو لم يكن إيمانهم صحيحًا لما ذكره في هذا المعرض، ثم إنا نعلم قطعًا أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليل و لا إثبات كونه تعالى منزهًا عن الجسمية و المكان و الحيز و لا إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها و لا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه و سلم، و لا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق و العلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح، و لا يقال: إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس

من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالماً بهذه التفاصيل، لأنا نقول: إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركباً من عشر مقدمات، فمن علم تسعة منها، و كان في المقدمة العاشرة مقلدًا كان في النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عالماً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل، لأن تلك الزيادة إن كانت جزأً معتبرًا في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة، و قد كنا فرضنا تلك العشرة كافية، و إن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك الدليل كان ذلك أمرًا منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة و النقصان، فأما أن يقال: إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة، و ذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك.

فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين، و مما يؤكد ما ذكرنا ما روى عن الحسن أنه قال: لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق، و قد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، و كل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال، هذا ما رواه الحسن، و معلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد، فعلمنا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين.

المسألة الرابعة: دين الله هو الإسلام لقوله تعالى:

{إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلاَمُ}

[آل عمران: 19] و لقوله:

{وَ مَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}

[آل عمران: 85] و للدين أسماء أخرى، منها الإيمان قال الله تعالى:

{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ}

[الذاريات: 35،36] و منها الصراط قال تعالى:

{صِرَاطِ ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي ٱلأَرْضِ}

[الشورى: 53] و منها كلمة الله، و منها النور:

{لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ}

[الصف: 8] و منها الهدي لقوله:

{يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء}

[الأنعام: 88] ومنها العروة:

{فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ}

[لقمان: 22] ومنها الحبل:

{وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللهِ}

[آل عمران: 103] و منها صبغة الله، وفطرة الله، و إنما قال: {فِي دِينِ ٱللهِ} و لم يقل: في دين الرب، و لا سائر الأسماء لوجهين الأول: أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات و الصفات، فكأنه يقول: هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول و الثاني: لو قال: دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك، و أحسن إليك و حينئذ تكن طاعتك له معللة بطلب النفع، فلا يكون الإخلاص حاصلاً، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك.

المسألة الخامسة: الفوج: الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا و إثنين إثنين، و عن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له: ما يبكيك فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **"دخل الناس في دين الله أفواجًا، و سيخرجون منه أفواجًا"** نعوذ بالله من السلب بعد العطاء.

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(3)

قوله تعالى: فيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار، و لهذا الترتيب فوائد:

الفائدة الأولى: اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمدًا كان على الحق مما يثقل على القلب و يقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلم لا تنصرني و لم سلطت هؤلاء الكفرة علي فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح، أما على قولنا: فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن تفعل ما تشاء كما تشاء ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئًا، و أما على قول المعتزلة: ما فائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة و المصلحة لا بسبب البخل و ترجيح الباطل على الحق، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان و البر، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه الوجه الثاني: أن للسائرين طريقين فمنهم من قال: ما رأيت شيئاً إلا و رأيت الله بعده، و منهم من قال: ما رأيت شيئًا إلا و رأيت الله قبله، و لا شك أن هذا الطريق أكمل، أما بحسب

المعالم الحكمية، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر، و أما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينوع النور هو واجب الوجود و ينبوع الظلمة ممكن الوجود، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة، و لأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل، و إذا ثبت هذا فنقول: الآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين و ذلك لأنه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخالق أمرين أحدهما: التسبيح و الثاني: التحميد، ثم ذكروا في المرتبة الثالثة الاستغفار و هو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق و إلى الخلق.

و اعلم أن صفات الحق محصورة في السلب و الإيجاب و النفي و الإثبات، و السلوب مقدمة على الإيجابات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لواجب الوجود و هي صفات الجلال، و التحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له، و هي صفات الإكرام، و لذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام، و لما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس، و فيه رؤية جود الحق، و فيه طلب لما هو الأصلح و الأكمل للنفس، و من المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محرومًا عن مطالعة حضرة جلال الله، فلهذه الدقيقة أخر ذكر الاستغفار عن التسبيح و التحميد الوجه الثالث: أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية، و ذلك لأن أعلى كل نوع أسفل متصل بأسفل النوع الأعلى و لهذا قيل: آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم

{وَ نَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدّسُ لَكَ}

[البقرة: 30] فقوله ههنا: {فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ} إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم: {وَ نَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ} و قوله ههنا: {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} إشارة إلى قوله تعالى: {وَ نُقَدّسُ لَكَ} لأنهم فسروا قوله: {وَ نُقَدّسُ لَكَ} أي نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك و الاستغفار يرجع معناه أيضاً إلى تقديس النفس، و يحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدي و رأوا ذلك من أنفسهم، و أما أنت فسبح بحمدي و استغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيقي و إحساني، و يحتمل أن يقال: الملائكة كما قالوا: في حق أنفسهم: {وَ نَحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدّسُ لَكَ} قال الله في حقهم:

{وَ يَسْتَغْفِرُوْا لِلَّذِينَ آمَنُواْ}

[غافر: 7] فأنت يا محمد استغفر للذين جاؤوا أفواجًا كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون:

{رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَ ٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ}

[غافر: 7] الوجه الرابع: التسبيح هو التطهير، فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام و كسرها ثم قال: {بِحَمْدِ رَبّكَ} أن ينبغي أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك، و إعانته و تقويته، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغي أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللائقة به، بل يجب أن ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته و الوجه الخامس: كأنه تعالى يقول يا محمد إما أن تكون معصومًا أو لم تكن معصومًا فإن كنت معصومًا فاشتغل بالتسبيح و التحميد، و إن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف في العبودية كما قال:

{وَ ٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ}
[الحجر: 99].

المسألة الثانية: في المراد من التسبيح وجهان الأول: أنه ذكر الله بالتنزه سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن فقال تنزيه الله عن كل سوء و أصله من سبح فإن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء و يضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء و مجراه و التشديد للتبعيد لأنك تسبحه أي تبعده عما لا يجوز عليه، و إنما حسن استعماله في تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات و الفعل نفياً و إثباتًا لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لا يقبل مالا ينبغي ألبتة فاللفظ يفيد التنزيه في الذات و الصفات و الأفعال و القول الثاني: أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى:
{فَسُبْحَانَ ٱللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ}
[الروم: 17] و قال:
{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ}
[طه: 130] و الذي يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل، و كان عليه السلام في آخر مرضه يقول: "الصلاة و ما ملكت أيمانكم"

جعل يلجلجها في صدره و ما يقبض بها لسانه، ثم قال بعضهم: عنى به صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات وقال آخرون: هي صلاة الضحى، و قال آخرون: صلى ثمان ركعات أربعة للشكر و أربعة الضحى و تسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لا تنفك عنه و فيه تنبيه: على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص في الأقوال و الأفعال، و احتج أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك، روت عائشة كان

رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد نزول هذه السورة يكثر أن يقول: " **سبحانك اللهم و بحمدك استغفرك و أتوب إليك** " ، و قالت أيضًا: كان الرسول يقول كثيرا فيركوعه "**سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغفر لي**" وعنها أيضاً كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجيء إلا قال "**سبحان الله و بحمده فقلت يا رسول الله إنك تكثر من قولة سبحان الله و بحمده قال: إني أمرت بها**"، و قرأ: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ} و عن ابن مسعود: «لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول: "**سبحانك اللهم و بحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور** " و روى أنه قال: "**إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة**". المسألة الثالية: الآية تدل على فضل التسبيح و التحميد حيث جعل كافيًا في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر و الفتح، و لم لا يكون كذلك وقوله: "**الصوم لي** " من أعظم الفضائل للصوم فإنه أضافه إلى ذاته، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم في هذا التشريف:

{وَ أَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ للَّهِ}

[الجن: 18] فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال:

{وَ لَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ}

[العنكبوت: 45] و كيف لا يكون كذلك، و الثناء عليه مما مدحه معلوم عقلاً و شرعًا أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع و لذلك جعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح و التكبير. فإن قيل: عدم وجوب التسبيحات يقتضي أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة. قلنا الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح و التهليل فالعقل داع إليه و

الروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعي و لذلك قال:

{وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوْا أَشَدُّ حُبّا}

[البقرة: 165]، و ثانيها: أن قوله: { فَسَبّحْ } أمر و الأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء، و من قال: الأمر المطلق للندب قال: إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار و الاستغفار واجب و من حق العطف التشريك بين المعطوف و المعطوف عليه و ثالثها: أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهارًا لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور.

المسألة الرابعة: أما الحمد فقد تقدم تفسيره، و أما تفسير قوله: {فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ} فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قال صاحب "الكشاف" أي قل: سبحان الله و الحمد لله متعجبًا مما أراك من عجيب أنعامه أي اجمع بينهما تقول: شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خلطاً و شربًا و ثانيها: أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد لأن الثناء عليه و الشكر له لا بد وأن يتضمن تزيهه عن النقائص لأنه لا يكون مستحقًا للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص و لذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله و عند فتح مكة قال: الحمد لله الذي نصر عبده، و لم يفتتح كلامه بالتسبيح فقوله: {فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ} معناه سبحه بواسطة أن تحمده أي سبحه بهذا الطريق و ثالثها: أن يكون حالاً، و معناه سبح حامدًا كقولك: اخرج بسلاحك أي متسلحًا و رابعها: يجوز أن يكون معناه سبح مقدرًا أن تحمد بعد التسبيح كأنه يقول: لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوي الصلاة مقدراً أن تنحر بعدها، فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة كذا ههنا و خامسها: أن تكون هذه الباء هي التي في قولك: فعلت هذا بفضل الله، أي سبحه بحمد الله و إرشاده و إنعامه، لا بحمد

غيره، و نظيره في حديث الإفك قول عائشة: «بحمد الله لا بحمدك» و المعنى: فسبحه بحمده، فإنه الذي هداك دون غيره، و لذلك روي أنه عليه السلام كان يقول:

"الحمد لله على الحمد لله" و سادسها: روى السدي بحمد ربك، أي بأمر ربك و سابعها: أن تكون الباء صلة زائدة، و يكون التقدير: سبح حمد ربك، ثم فيه احتمالات أحدها: اختر له أطهر المحامد و زأكاها و الثاني: طهر محامد ربك عن الرياء و السمعة، و التوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة و الثالث: طهر محامد ربك عن أن تقول: جئت بها كما يليق به و إليه الإشارة بقوله:

{وَ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}

[الأنعام: 91] و ثامنها: أي ائت بالتسبيح بدلاً عن الحمد الواجب عليك، و ذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم، و نعم الله علينا غير متناهية، فحمدها لا يكون في وسع البشر، و لذلك قال:

{وَ إِن تَعُدُّوْا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا}

[إبراهيم: 34] فكأنه تعالى يقول: أنت عاجز عن الحمد، فأت بالتسبيح و التنزيه بدلاً عن الحمد و تاسعها: فيه إشارة إلى أن التسبيح و الحمد أمر أن لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني، و لا يتصور أيضاً أن يؤتى بهما معًا، فنظيره من ثبت له حق الشفعة و حق الرد بالعيب، وجب أن يقول: اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع، كذا قال: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} ليقعا معًا، فيصير حامدًا مسبحًا في وقت واحد معًا و عاشرها: أن يكون المراد سبح قلبك، أي طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك،

فقوله: {فَسَبِّحْ} إشارة إلى نفي ما سوى الله تعالى، و قوله: {بِحَمْدِ رَبِّكَ} إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى.

المسألة الخامسة: في قوله: {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} وجوه أحدها: لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه، و يسأل الله أن ينصره، فلما سمع: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ} استبشر، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله و أمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي صلى الله عليه و سلم بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو و ترك الانتقام، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول: إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التي عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعه منه، سواء كان المشتري عدوًا أو وليًّا، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكيًا أو مدنيًا، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له: أخ كريم و ابن أخ كريم قال لهم:

{لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ}

[يوسف: 92] أي أمرني أن استغفر لكم فلا يجوز أن يردني و ثالثها: أن قوله: {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} إما أن يكون المراد و استغفر الله لنفسك أو لأمتك، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فمن قال: صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهًا: أحدها: أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة و ثانيها: لزمه الاستغفار لينجو عن ذنب الإصرار، و ثالثها: لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابرًا للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه

شيء أصلاً، و أما من قال: ما صدرت المعصية عنه فذكر في هذا الاستغفار وجوهًا: أحدها: أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح و ذلك لأنه وصف الله بأنه غفار و ثانيها: تعبده الله بذلك ليقتدي به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في عبادته، و فيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده و عصمته ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف من دونه و ثالثها: أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل و رابعها: أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة، فليستغفر الله لأجل ذلك و خامسها: الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصرًا فيستغفر الله عنه، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية، أما الاحتمال الثاني: و هو أن يكون المراد و استغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله:

{وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ}

[محمد: 19] فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب و أهم، و هكذا إذا قلنا: المراد ههنا أن يستغفر لنفسه و لأمته.

المسألة السادسة: في الآية إشكال، و هو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات، ثم الحمد مقدم على التسبيح، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام، و الإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار، ثم بعده يذكر الحمد، ثم بعده يذكر التسبيح، فما السبب في أن صار مذكورًا على العكس من هذا الترتيب؟ و جوابه: من وجوه أولها: لعله ابتدأ بالأشرف، فالأشرف نازلاً إلى الأخس

فالأخس، تنبيهًا على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق و ثانيها: فيه تنبيه على أن التسبيح و الحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله و عزته صار عين الذنب، فوجب الاستغفار منه و ثالثها: للتسبيح و الحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله، و الاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله)، و الأول كالصلاة، و الثاني كالزكاة، و كما أن الصلاة مقدمة على الزكاة، فكذا ههنا.

المسألة السابعة: الآية تدل على أنه عليه الصلاة و السلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح و الاستغفار، و ذلك من وجوه أحدها: أنه عليه الصلاة و السلام كان مأمورًا بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواترًا، و حتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح و الاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض و ثانيها: أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة و المحنة، ما فعله الرسول من تجديد الشكر و الحمد عند تجديد النعمة و ثالثها: أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر، فأمر الله رسوله بالحمد و الاستغفار دائمًا، و في كل حين و أوان ليقع الفرق بينه و بين غيره، ثم قال: و استغفره حين نعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك.

المسألة الثامنة: في الآية سؤالات أحدها: و هو أنه قال: {إِنَّهُ كَانَ تَوابَا} على الماضي و حاجتنا إلى قبوله في المستقبل و ثانيها: هلا قال: غفارًا كما قاله: في سورة نوح و ثالثها: أنه قال: {نَصْرُ ٱللهِ} و قال: {فِي دِينِ ٱللهِ} فلم لم يقل: بحمد الله بل قال: {بِحَمْدِ رَبّكَ} و الجواب: عن الأول من وجوه أحدها: أن هذا أبلغ كأنه يقول: ألست أثنيت عليكم بأنكم: خير أمة أخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة، و فلق البحر و نتق الجبل، و نزول

المن و السلوى عصوا ربهم. و أتوا بالقبائح، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم و ثانيها: منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة و الشروع ملزم على قبول النعمان فكيف في كرم الرحمن و ثالثها: كنت توابًا قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل و قد أمرتكم بالاستغفار و رابعها: كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أي لستم بأول من جنى و تاب بل هو حرفتي، و الجناية مصيبة للجاني و المصيبة إذا عمدت خفت و خامسها: كأنه نظير ما يقال:

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

و الجواب: عن السؤال الثاني من وجوه أحدها: لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار، و يقال: تواب إذا كان آتياً بالتوبة، فيقول تعالى: كنت لي سمياً من أول الأمر أنت مؤمن، و أنا مؤمن، و إن كان المعنى مختلفاً فتب حتى تصير سمياً لي آخر الأمر، فأنت تواب، و أنا تواب، ثم إن التواب في حق الله، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيرًا فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيرًا و ثانيها: إنما قيل: توابًا لأن القائل قد يقول: أستغفر الله و ليس بتائب، و منه قوله: "المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزىء بربه" إن قيل: فقد يقول: أتوب، وليس بتائب، قلنا: فإذًا يكون كاذبًا، لأن التوبة اسم للرجوع و الندم، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذبًا فيه، فصار تقدير الكلام، و استغفره بالتوبة، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة و الاستغفار، و كذا خواتيم الأعمال، و روي أنه لم يجلس مجلسًا إلا ختمه بالاستغفار و الجواب: عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين و ذكر اسم الفعل مرتين أحدهما: الرب و الثاني: التواب، و لما

كانت التربية تحصل أولاً و التوابية آخرًا، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخرًا.

المسألة التاسعة: الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله صلى الله عليه و سلم روي أن العباس عرف ذلك و بكى فقال النبي صلى الله عليه و سلم: ما يبكيك فقال: نعيت إليك نفسك فقال: الأمر كما تقول، و قيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك فقال عليه الصلاة و السلام: **"لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا"** روي أن عمر كان يعظم ابن عباس و يقربه و يأذن له مع أهل بدر، فقال عبدالرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا، و في أبنائنا من هو مثله؟ فقال: لأنه ممن قد علمتم قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم و أذن لي معهم فسألهم عن قول الله: {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ} و كأنه ما سألهم إلا من أجلي فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره و يتوب إليه، فقلت: ليس كذلك و لكن نعيت إليه نفسه فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم، ثم قال: كيف تلومونني عليه بعدما ترون، و روي أنه لما نزلت هذه السورة خطب و قال:

"إن عبدًا خيره الله بين الدنيا و بين لقائه و الآخرة فاختار لقاء الله" فقال السائل: و كيف دلت هذه السورة على هذا المعنى؟ الجواب: من وجوه أحدها: قال بعضهم: إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة و ذكر التخيير و ثانيها: أنه لما ذكر حصول النصر و الفتح و دخول الناس في الدين أفواجًا دل ذلك على حصول الكمال والتمام، و ذلك يعقبه الزوال كما قيل:

إذا تم شيء دنا
توقع زوالاً إذا قيل تم
نقصه

و ثالثها: أنه أمره بالتسبيح و الحمد و الاستغفار مطلقًا و اشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم و كمل، و ذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة و أنه غير جائز و رابعها: قوله: {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت و دنا الرحيل فتأهب للأمر، و نبهه به على أن سبيل العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة و خامسها: كأنه قيل له: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته، و هو النصر و الفتح و الاستيلاء، و الله تعالى وعدك بقوله:

{وَ ٱلأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلأُولَىٰ}

[الضحى: 4] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية.

المسألة العاشرة: ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة. و أما الذين قالوا: إنها نزلت بعد فتح مكة، فذكر الماوردي أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يومًا مستديمًا للتسبيح و الاستغفار، و قال مقاتل: عاش بعدها حولاً و نزل:

{ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}

[المائدة: 3] فعاش بعده ثمانين يومًا ثم نزل آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يومًا، ثم نزل:

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ}

[التوبة: 128] فعاش بعدها خمسة و ثلاثين يومًا ثم نزل:

{وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللهِ}

[البقرة: 281] فعاش بعدها أحد عشر يومًا و في رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام، و الله أعلم كيف كان ذلك.